

الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التي تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول !

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعينهم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء في ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيا وأبلها ، وقد سمعته يقول إن إنجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بإدارة دفة سياستها . أما مصر فإن بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة في المواقف السياسية ، في المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشيء الكثير .

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونه إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر في خلقه ولا في رأيه في غيره من الخلق بل ولا في الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزى عنه أسرة الأدب وألهمهم السداد والتوفيق في القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له في الأدب المصرى الوطنى من أثر ؟

من العظيم

حافظ واللغة الفصيحة

كنت وعدت الصديق العزيز محرد (أبولو) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوّف ، ولّى أعذار في التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر في التحلل من ذلك الوعد ، فأتى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بدّ من انجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهبجنى في كل لحظة ممثلة في بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائدته ولا قيل أين الفتى الالمى

ومرّ بالبال أتى شُغلت عن شهود جنازته ، فن المروءة ان لا أشغل عن شهود ذكره .

وأنا أقف في موكب هذه الذكرى عند نقطة صغيرة : هي عمل حافظ في انهاض اللغة الفصيحة .

١ — كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ كثيراً من المواويل والازجال ، وكان ينشد محفوظاته تلك في حماسة وإعجاب ، ولكن اتصاله بالامستاد الامام محمد عبده حوَّله الى قوة طاغية في مناصرة اللغة الفصيحة ، وصداقته للوزير المصلح احمد حشمت باشا دفعته الى التفكير في رياضة تلامذة المدارس على فهم لغة القرآن ، فأنشأ قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية :

أنا البحر في أحشائه الدر كامنٌ فهل ساءلوا الغواصَّ عن صدفائي

وأخذ يخلق المناسبات للسخرية من أقطاب الأدب الحديث الذين عجزوا عن وصف ما جدَّ من المخترعات على حين استطاع البدوي ان يسبغ على ناقته ابلغ الصفات واشرف النعوت ، واليك قوله في مقدمة ترجمة البؤساء :

« تباركت اسمائك اللهم ! أبدي البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التي تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لانكاد نجد لأسمائها مرادفاً في هذه اللغة ؟ فاعسى ان تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه :

الايضاض أبردا عظامي الماء والفتُّ بلا إدام

وهو فوق راحلته ظالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس تكاد تأكل ظلها في مفازة .

تمشى الرياحُ بها حيرى مولهةً حسرى تلوذ بأكناف الجلاميدِ

إذا أردته على ان يصف تلك الراحلة المعجزة ، وأردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوا أريكة «الوتيميل» تحت ذلك الظل الظليل ، في مخارف صفاف النيل ، على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ، ولا مرادفاً في اللغة يؤدي معناه ! نخذوا ايها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين ايديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه ، وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم

يصيبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منها آمين .

وخلاصة هذه الكلمة أن تخلف اللغة عن وصف المخترعات الحديثه ليس من عيوبها ، وإنما العيب عيب الكسالى العاجزين الذين لم يخلقوا من الألفاظ والتعابير ما حق البدوى الضالّ في الصحراء . وسخرية حافظ التي قذف بها الأدباء منذ عشرين عاماً لا يزال لها مكان : فعندنا بحمد الله ميثاق من الأُشباح الجميلة ترمى اللغة بالضعف والتخلف ، كأن اللغة تخلق نفسها خلقاً ثم تتقدم طائفة خاشعة لخدمة الأدباء سكان القهوات !

٢ - ومن أجل ما قرأت لحافظ رأيه في قوة الاصطلاح ، وهو رأى نشره في مقدمة كتاب الاقتصاد الذي اشترك في ترجمته مع الأستاذ الجليل خليل بك مطران . وهو يرى أن الاصطلاح ليس بأوهى قوة من النقل ولا هو بدونه في مراتب الهيمنة على اللغات « فإمن كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى الا وللاصطلاح يد في حظها من الموت أو الحياة » .

وكانت حياة حافظ نفسها دعاية لقوة الاصلاح ، وإن كنا لاحظنا أنه كان يخالف بين قوله وفعله ، فكان في مجالسه من أوسع الناس صدرأ ، وأعرفهم بحجة الرأي ، فإذا نظم قصيدة أو أنشأ رسالة تكلف وتحذلق واستوحى المعاجم واغلق الباب في وجه الاصطلاح !

٣ - وإم خدمة قدمها حافظ في حياته الى اللغة الفصيحة هو تمكنه من الأدب القديم ، فقد كان يشعر كبحودة محفوظه وتنوعه ان العرب أفصح الناس وابلغ الناس ، وكان يتدفع في انشاد الشعر القديم تدفع السيل ، ثم يطوف بمحذائق الملح والفكاهات البدوية والحضرية ، فلا تنصرف الا وانت أشوق الى دراسة الأدب الفصيح الذي يمكن مثل هذا المحدث من ناصية البياقة والظرف وحلاوة الحديث .

وبعد ، فهذا ما سمح به الخاطر المكدود ، ولنا عودة في الذكريات المقبلة ، فلن يكون هذا آخر العهد بشاعر مصر والنيل

زكى مبارك